

القسم السابع

الاعتداء على الجزائر

« ياويلاه إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست وحدها العائق الذي يعترضنا في الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا ^(١) نفسها كثيراً ما تكون حرباً علينا ،
« فاوست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الاسلامي وسائر أمم الأرض أن فرنسا اعتدت بلا مبرر بل يسبق إصرار وترصص على حرية الأمة الجزائرية وكان ذلك بغير إعلان حرب ، ولا اخطار للدولة صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها في يوم ١٩ يونيه سنة ١٨٣٠ عند الصباح في مرسى سيدي فريج حيث انسحبت قوات والى الجزائر من البرج القائم ، حقنا للدماء وإثباتا للتعدى أمام طوفان الفرق ، التي جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربي. هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً في ذكريات كل فرد منا مهما كانت

(١) يرجع ضعف الامم الاسلامية الى فقدان الرجال والساسة ذوى البصيرة النافذة والاخلاص الدائم .

ثقافته ، ومهما كانت آماله . ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم بالاحتجاج على هذا العدوان ، وإن تنصت السموات العلاء إليهم ، وتستمتع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم .

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد . يقفون دقائق معدودة تحية المجاهدين والمقاتلين ، الذين جادوا بأرواحهم ، دفاعاً عن حريات الأمة الجزائرية ، في كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ، ويرد إليهم حقه وإلى أن تعود الحياة والنور إلى الشعب الجزائري على الثرى الذى حمل أجماده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا للحوادث التى تمخض عنها من ضياع إستقلال تونس ومراكش ، ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنوات عديدة ، ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهورة وإنما كان محنة إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجهودهم وتفرق كلمتهم . لقد كشفنا هذا العدوان الفرنسى أمام الدنيا وشعوبها ، كنا قوة تخشاها أحداث الزمن ، فإذا نحن لا شىء . كان العالم يحسب ألف حساب للروح التى تفيض حماسة وقوة ورفعة . تلك الروح التى أفرغتها تعاليم الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح

لا وجود لها إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا حمل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم وكان عبئاً ثقيلاً عليهم . حقاً إنهم ما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ولكن للطاقة البشرية حداً ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا في النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديدة بالبحث والتحقيق . نقول : ماذا دهم العالم الاسلامي وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التي عهدناها في التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور مלאها الايمان — لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن وإنما تقوم للأحداث وتقعدها أين ذهبت تلك الحيوية التي كابت تتبع الرادفة بالرادقة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا وتواجه بصدور أهلها طوفان الحوادث ، فتعلو عليه ، والنصر من كل جانب يواتيها .

ولقد افتتحت هذا الفصل بجملة من فاوست ، قالها جوته الشاعر الالماني ، وهي تلخص حال المسلمين في افتتاح القرن الماضي إذ كانت قد خفت منذ سنوات وقرون أصوات المعارك الزاحفة وانهدت صروح الممالك القوية ، وتفككت عرا الدنيا الاسلامية حينما اطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التي كانت عامرة أنقاضاً ، وهبط عدد المسلمين في مصر وفارس وسوريا

والمغرب ، وضعف شأن المسلمين في كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان ، التي وسملت جحافلها الى فينا مرتين ، ثم إذا هي تواجه الهجمات المتتالية في جهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماتة فمن كان بوسعها أن يخرق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الاعظم بثلاثة قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وارزاهه كانت نتيجة للأخطاء ، التي ارتكبتها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم .

لم يبق من شك أن الحروب التي شنها سليم الاول على مصر وايران أضعفت الكيان الاسلامي ، كقوة فعالة ، ولا سيما إذا حللنا على ضوء المنطق الاسباب التي دفعته اليها ، فقد كانت مشاكاه مع الدولتين من الأمور التي كان بوسعها حسمها ، دون أن يتورط في معارك مع دول اسلامية هي بطبيعتها حليفة له ، فكان من أثر خروبه ان زالت من الوجود دولة مصر ، التي كسبت الحروب الصليبية في مواجهة أوروبا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التي وجهت إلى مصر في سنة ٩٢٣ هـ كانت ضربة ضد العروبة والاسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين ، كان له المقام الأول في الدفاع عن أراضيهم وصد أعدائهم ، وسرعان ما ظهرت للعيان فداحة هذا الرزم حينما لم يمض

نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع في عدد السكان، ونقص في العمران الذي كان قائما بأراضي مصر والشام . بل إن أثر الفتح العثماني كان شديداً حتى على الحركة العلمية والأدبية التي كانت سائدة بمدارس القاهرة ، ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطي والمقرئ وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشريعة . ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الإسلام في العقلية الأوربية نفسها . فهذه جمهورية البندقية استمرت في علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى ، وإنك إذا ذهبت إلى هذه المدينة وزرت قصر الدرجات تجد في إحدى قاعات العرش رسماً كبيراً يمثل سفراء إيران ، بين يدي عاهل البندقية . إن هذه الصورة توحى بأشياء كثيرة ، فإن هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوق البندقية كان عدواً للأتراك العثمانيين ، فهو يضع في مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدول العثمانية من المسلمين ، وأيس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم الأول من هذه الصورة القائمة حتى اليوم درسا وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراکش ، فهي قد

عاشت أكثر من ثلاثة قرون في شبه عزلة تامة ، نتيجة للسياسة العامة التي وضعها سليم والتي أراد أن يفرض بها سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهي سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مرا كش المستقلة ، ولم يكن من نتيجتها سوى توالي المحن والنكبات وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسي ، الذي تمثل في الاعتماد على القطر الجزائري الشهيد .

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التي أظهرها ملوك مصر ، ابتداء من من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش القفجاق في روسيا تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوئيلة إلى الإسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح ، مع أنها كانت قريبة منهم ، لأنها جاءت لملوك هذه البقاع ، وفضلت فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء في عنفوان قوتهم ؛ فرفضوا الأذعان لسلطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة في إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها . وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هر عاجز من

حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدواه العثمانية وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوازي ، الذين خضعوا لها ، واستأسد حكام موسكو ، فأصبحرا بعد ضعفهم وخضوعهم للملوك المسلمين اباطرة وقيصرة . وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر في شمالي رومانيا وفي وسط بلاد المجر كافية لصد جموع أوروبا مجتمعة ، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجبهة شرقا ، وظهر عدو جديد هو روسيا التي أخذت تكتسح الامارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأسود ، الذي عرفته القرون بحيرة إسلامية .

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان الفرجا المسلمين وأمرء القرم ، وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملئ بتقوية هذه الامارات وتشجيعها ، بدلا من مناوأتها ، فإذا هي أول ضحايا الزحف المسكوبي وإذا بالجبهة العثمانية تنهار بسرعة ، وإذا بمجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار فيينا إلى عهد حملة نابليون ١٨١٢ في صد الهجمات المضادة التي شنتها أوروبا فإذا وفقت في صدها عاجلها الدب الروسي الأسير ، مستعينا بمن كانوا حلفاءها . لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا ، فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب
وسياسة سلاطين القاهرة في علاقتهم مع مسلمى الفولجا والقرم ،
لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً ، وأكثر انتباهاً .
ولذلك لم تكسب الدولة العثمانية كثيراً في سياستها الإسلامية .
وجاء اتساع رقعة أراضيها فلم يمكنها من أن تصير دولة متماسكة قوية
ومع خدماتها الجلى للإسلام جاء وقت كانت هى وحدها الدولة
الإسلامية التى تتلقى الصدمات التى يوجهها أعداء الإسلام وخصومه
إلى أمم . وفى غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر
الجزائرى ، فإذا القوى مبعثرة ، والأيدى مغلوله ، وأراضى المسلمين
الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التى نسمعها نحو الوحدة ،
وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن
المتناقضات التى أورثتها لنا الأطماع والحزازات ، والعقد النفسية
فلنحذر من الوقوع فى أخطاء السلف لأن هذه الأخطاء قد تكون
أكثر وبالاً علينا من المصائب والنكبات التى يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هناهى : أننا من دعاة حرية الشعوب
الإسلامية . ولكن مع الإسراع فى الأخذ بمدنية القرن العشرين ،
ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعى قومى صحيح ، مبنى على العلم

والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها
وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جرائم الفشل ، وتنتهي إلى نكبات (١)
ومحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه
القاسية تبني وتؤسس دعائم المستقبل فنحن طلاب حرية وتقرير
مصير واستقلال ، كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية
ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون
ممثلة في ضياع شمال أفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة
بين الوحدات العربية والإسلامية تنمر على ضوء التجارب مع الزمن
نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ
المواصلات ، وتختفي الانقراض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي
أورثتها لنا أجيال ، عشنا فيها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .
هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر ، وما
لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ،
فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا ، لنعرف
الدوافع الكامنة وأثرها .
لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت
إلى إسبانيا عبرت جبال البرانس ، ودخلت فرنسا بقيادة عبد الرحمن
ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادي نهر اللوار ، ولكن في وسط الوديان الشاسعة بين بلدتي تور وبواتييه حيث المروج الخضراء التقت جموع العرب لأول مرة جموع مع عنصر أوربي مقاتل هم الجرمان ، وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت رحى معركة قال عنها كتاب أوربا : هي المعركة الفاصلة بين الإسلام وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن . ٩ .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة في التهويل والتفخيم أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتيجتها كانت انسحاب العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا وآسيا . وفي هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام ، ومن الغريب أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب في صفوف المسلمين ، أمراء مسيحيين .

لقد شامت الروح الصليبية السائدة في أوربا أن تجعل من معركة تور وبواتييه ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لا في فرنسا وحدها بل في إسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة قائمة على الكراهية والافناء سائدة لمدة ثمانية قرون ، وهي تلاحق العرب ، حتى صفت المشكلة الإسلامية في بحر من الدماء والمذابح في إسبانيا ، وغادر آخر ملوك غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد انتهت ، وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح ، وكانوا في ذلك من الواهمين لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب في عقر ديارهم ، وقذفت فرنسا — التي حكمها العرب وفتحوا ديارها — بحملة قوامها أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وأسطول عدته أربعائة سفينة ومائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات ، بل تقدمتها محاولات أخرى ، لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عيبتهم ، وهدموا أحياء منها ، ويذكر التاريخ مثل هذه الهجمات على مدن السواحل الأفريقية كلها ، حتى مدينة الإسكندرية ، وبيروت ، وسواحل الشام أصيبت في عهد الدول العثمانية وقبلها بشئ من هذا العدوان على أيدي قراصنة الأوربيين .

ومع ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية وهم أهل المشاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة على السواحل الإسلامية ، واسترجاع المناطق التي سيطر العدو أحياناً عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهلة هي التي جعلت أمراء الممالك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون ، وجعلت أهل الجزائر يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا في هذا من المخطئين

فدفعوا الثمن غاليا بهزيمتهم وموتهم ، وأضاعوا البلاد من أيديهم .
وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمعارك تور وبواتيه
إلى الشاطئ العربى ، وبدأت حرب الموت والفناء ، تشنها قوة تعتقد
أنها تستعيد مجد روما على الرمال التى حملت أعلام روما القاسية ،
وتستوحى فى قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ، ومعارك
لويس التاسع فى أفريقية . وهكذا شاءت فرنسا أن نعيش نحن معاصر
العرب بأفريقيه الشمالية فى غمرات الهجوم المضاد ، الذى بدأه
الجرمانى شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك ما يبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره
المؤرخون عن إهانة الوالى حسين باشا للجنرال دو فال Deval قنصل
فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٢٣ هـ ، وما سبق
هذا من النزاع على الديون التى ماطلت فرنسا فى دفعها لحكومة
الجزائر . والدور الذى لعبه كل من يعقوب كوهين بكري وميخائيل
أبو زناك اليهوديين فى هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر
أو إلى محاكم باريس التجارية للفصل فيها ، ثم احتجاج القنصل
ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن
هذا القنصل تعمداً يجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالى
حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته ، فرد عليه أنه ليس من

عادة ملك فرنسا أن يكتب من هو دونه بغير واسطة ، فأثار بتموله غضب الوالى .

إذا ما الفائدة فى تعرف أسباب العدوان بين القوى والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن إختيار الجنرال ليرأس القنصلية وهو عسكري إلا توطئة وتحضيراً للأعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٨٣٠ ، إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب ، ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة^(١) أو إنذار للوالى — وأنزلت عساكرها فى مرسى سيدى فريج ، وهى بقعة خالية من الناس ، لا تحرسها غير قوة صغيرة من الجنود فى برج قائم ، رأت أن تنسحب بغير قتال ، حملاً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربى .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا تنسه لأنه يحمل ذكريات العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد . وبعد مائة عام أى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم ، فأثارت بعملها حمية شريفة من الجزائريين وإحرارهم ، وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك حتى لا يروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل به الغاصب ، ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح ، والشعب الشهيد . فلقينى جماعة منهم بمدينة استانبول ، وذكروا لى

مشاهد مما يلقونه من عنت ، وما صارت إليه أوطانهم ومرايهم .
وهي البلاد العزيزة التي حملت أعلام المراتبين والموحدين ، وقبائل
المسلمين من العرب والبربر ، وكانت لهم السيادة والقيادة ، والحول
والقوة ، أيام كانت ترتج أمام أمجادهم وعزائمهم جحافل الفرنجة ،
وتخشاهم الدنيا .

وجاء منهم فريق إلى مصر فأمضى أياماً ، من غير أن يسمع لهم
صوت أو أنين ، ولما جاء الفوج الثاني أرجعهم بوليس مصر وشرطة
المواني ، بحجة أن مصر لم تكن مذكورة على جوازات سفرهم^(١) .
وضحكت من الأيام التي جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات
حكومة الاستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم
أقرب الشعوب إلينا ، وألصقهم بنا ، ومن يحملون تأشيرة مصرية
قانونية . ولا أدري من الذي لفت الأنظار اليهم ، ومن حال بينهم
وبين مصر ، ومن أعطى التعليمات لاعادتهم ؟

وارتجت مدن الجزائر في يونيه سنة ١٨٣٠ ، وقامت القائمة فيها
والوالى يجمع جنده ويحشد هم ، ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو
للجهاد والدفاع ويطلب النجدة من وهران وقسطنطينية ، وخرجت
الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين ، فاقتحموا المراكز الامامية أمام
تراجع الجنود الفرنسية ، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية

(١) أى ضمن البلاد المرخص لهم بدخولها .

حصدهم بنيرانها حصدا ، فاختمت صفوفهم ، واخلوا الأماكن التي احتلوها ، وتعقبهم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر في يوم ٢٥ يولية سنة ١٨٣٠ .

وكانت قوات والى الجزائر محتشدة داخل حصون فى ناحية أبى جارية، فخرجت منها للقتال ، والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين . فلم تصبر على النيران وارتدت ، وأخلت هذا المعسكر ، فاحتله العدو ثم تقدموا منه ، واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدءوا حصارها وبعد أيام أخذوا فى إطلاق نيران المدفعية ، فأصاب قذائفها برج مولاي الحسن ، وكانت فيه مخازن البارود ، فأصابها قنبلة ، سببت انفجارا هائلا ، فاندك البرج على من فيه وتطايرت حجارته وتهدمت عدة منازل ، ومات خلق كثير تحت الانقاض .

وبهذه النائة اهتزت اركان المدينة ، وفقدت روح المقاومة ، واستولى الرعب والقلق على السكان ، فقرر والى تسليم المدينة .

وفى صباح يوم ٦ يولية سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد ، وأنزلت الأعلام العثمانية من القسبة والأبراج ، ورفعت الرايات الفرنسية ، واحتلت الجنود القسبة والقلاع والشواطىء ، وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التي امضت فرنسا السنين تحلم بوضع اليد عليها، بعد أن فقدت أملا كها في الهند وأمريكا وجزائر المحيطات ولم يرد في ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق الأهالي وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعماري الذي وضعه نابليون في مصر وهو : احترام الديانة المحمدية ، وعدم التعرض لنساء المسلمين .

وهو النص الذي ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه في كتبهم وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون ماذا يريد المسلمون وقد تركنا لهم حرية التدين ، وحفظنا لهم أعراضهم ، كأن حياتهم وقف على هذا لا تتعداه ، أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم أمور الدنيا ، فلا تهمهم العاجلة ، ماداموا قد ضمنوا الآجلة ، وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائبة المشارق والمغارب وكانت من أعظم النوائب ، والحقيقة أن العالم الإسلامي الذي عهدناه يهتز لما يحدث في ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا لما تلاها من نكبات ، وإنما تحرك القطر الجزائري وحده ، أمام العدوان ، وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم ، وانضموا تحت لواء الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب

القاسية في تاريخ الإسلام الذي واجه الحقائق ، وقال : لقد تبينت ما قدر على وهأنذا مستعد للأقدام .

ولكن بعد مضي قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ، ويرددون هذا القول ، لقد عرفوا وتبينوا ما كتبه لهم الأقدار ، فهل هم على عهد الأقدام قائمون ؟ هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى في القسم التالي ما كان من هذه الواقعة الخالدة .